صفحة ذهبية من تاريخ لبنان

البطريرك اللبناني
الياس بطرس الحويك
١٨٤٢-١٩٣١

بقلم المحامي منصور عواد عواد

٢

الاسقف

ان المدة الطويلة التي قضاها الحويك في المقر البطريركي ، سواء أكان كاهناً او مطراناً ، اكسبته بشؤون الطائفة المارونية الداخلية والخارجية وحاجاتها وما يستلزم لبنان في اموره السياسية والادارية والاقتصادية خبرة عزّ نظيرها عند سواه . فما ازف الوقت المناسب ، ودقّت ساعة العناية ، وازدادت الثقة به بالاسقفية التي ارتقى اليها ، حتى شرع يحقق افكاره الاصلاحية دون دويّ ولا طنين بل بهدوء ورباطة جأش كعادته .

عرف باختباره الطويل ان كثيراً من الفتيات اللبنانية لا يزلن محرومات من التهذيب الضروري الذي يرفع مستواهنّ الى المقام اللائق بهنّ والواجب لهنّ ، وعرف ان اساس التربية العائلية هو المرأة ، فاذا كانت هذه مهذبة امكنها ان تهذب الناشئة اللبنانية ولاسيما المارونية تهذيباً ضرورياً للدنيا وللآخرة . ورأى ان من انفع الوسائل لذلك انشاء جمعية من الراهبات الوطنيات ، لا المحصّنات او المحبوسات المنقطعات عن العالم الى الحياة النسكية في صوامعهنّ كما كان المألوف في الطائفة والشرق حتى ذلك العهد ، بل بجمعية من الراهبات اللواتي يخصصن لخدمة الفتاة في العالم بحياة تجمع بين الكمال الروحي في التأمل والصلاة ، والحياة الروحية قيد النذور والقوانين الرهبانية ، وبين الكمال العملي بخدمة القريب وتعليم

الفتاة وترويضها في امور الدين والآداب ، وبالمعيشة في وسط العالم مع الترفع بالروح وبطريقة الحياة عن كل ما هو عالمي.

وتقرّر لديه ان الشعب الماروني لا يترقى ولا يبقى الدين الكاثوليكي تراث الجدود الثمين بل الاثمن راسخاً فيه رسوخ جباله الا بتهذيب اكليروسه التهذيب العالي الكامل ، وما ذلك الا لان الكهنة هم قادة الشعب ورعاته . فاذا كان القائد قديراً مدرّباً عالماً واذا كان الراعي جديراً برعاية الناس لاسيما النفوس ، استطاع ان يقود رعيته الى المراعي الخصيبة فينيرها بعلومه ويرشدها بسديد آرائه ويشبع قلوبها بفضائله ويستميلها بمثله الصالح الى الفضيلة والى الله.

وادرك ان الطائفة المارونية منذ أقفلت مدرستها في رومية في مستهل القرن التاسع عشر ، بحلول جنود نابوليون الاول فيها اثناء احتلاله للمملكة الرومانية البابوية ، خسرت قوة عظيمة لان طلبة تلك المدرسة هم من الذين رفعوا المستوى اللبناني واخص منه الماروني الى رقيه ومجده الحقيقيين وجعلوا من الطائفة المارونية في الشرق حديقة غنّاء زاهرة بالعلوم. ففكر في ضرورة ارجاع تلك المدرسة القديمة الى الوجود.

ولهذا ما ان انتدبه الخالد الذكر سلفه البطريرك يوحنا الحاج ليذهب الى رومية في ٢٨ نيسان سنة ١٨٩٠ لتأدية فروض الطاعة والخضوع بالنيابة عنه لقداسة امام الاحبار البابا لاوون الثالث عشر ، ولطلب درع الرئاسة وبراءة التثبيت عملاً بما ترسمه الواجبات الكنسية التقليدية، حتى كاشفه بافكاره؛ ففوّض اليه ان يسعى لتحقيق تلك الافكار السامية وخاصة فكرة تجديد المدرسة المارونية ، التي كان قد سعى قبله وراء تحقيقها بطاركة الطائفة وبعض احبارها اذا توفقوا ، ثم قلده السلطة اللازمة لتلك المساعي الخطيرة.

فما ان اتم مهمته في رومية وبعث بالدرع والبراءة الى السيد البطريرك حتى تخلف في عاصمة الكثلكة وشمّر عن ساعد الجدّ في سبيل احياء المدرسة المارونية القديمة الشهيرة وبعثها من لحدها. فتوفق جد التوفق باكتساب عطف قداسة البابا ومساعدته وتزوّد باجازة منه ومن مجمع انتشار الايمان المقدس بل بتوصيات تدلّ على مبلغ ثقة السدة الرسولية به ثم توجه الى فرنسة بلاد الاحسان ،

وقبلة الموارنة في كل عصر وخاصة منذ عهد الملك القديس لويس التاسع ، فزار الشعب والرؤساء والحكومة. فاعجب كادلة فرنسة واساقفتها بتجرده وسمة نظره ، واحبه شعبها لدعته وفضائله ، وقدّره رجال الحكومة قدره لصدقه وصراحته وسمة اختباره وصدق نظرياته السياسية والادارية . فاقنع الحكومة بوجوب التعويض على الموارنة عما أُنزل بمدرستهم الرومانية القديمة من الخراب بسبب احتلال الجيوش الافرنسية عند ما احتلوا رومية في مطلع القرن ، وخاطب الشعب والاساقفة واطلعهم على حاجة الموارنة الى مدرسة عالية تهذّب اكليروسه في عاصمة الكثلكة وكان يجول من رعية الى اخرى ، ومن ابرشية الى ابرشية ، يلازمه في اسفاره الخوري بولس بصبوص ويرافقه شاهداً على عزة نفسه وتجرده واتعابه الشاقة ، يمدّ يده الى جمع التبرعات قائلاً للشعب الافرنسي : ان الشعب الذي يرسل بنيه الى جميع اقطار المسكونة لتهذيب العالم ورده الى الدين الكاثوليكي لا نخجل ان نمدّ اليه يدنا ليجود علينا بماله احياء لمدارسنا ومشاريعنا التهذيبية. لانه شعب متعود البذل في سبيل الكنيسة والله والعلم ، ونحن لنا دالة خاصة على فرنسة حيث ان الشرق يلقب الشعب الماروني بفرنسة الشرق وما ذلك الا لارتباطنا برابطة حسب قديم لا تنفصم ، مع هذا الشعب النبيل.

فلبته الحكومة الافرنسية باريحية اذ عيّنت للطائفة المارونية ثمانية كراسٍ مجانية لثمانية اكليريكيين في مدرسة سان سولبس الطائرة الشهرة في باريس ، ومعبداً في قصر ليكسمبورغ ليقيم فيه الموارنة نزلاء باريس واجباتهم الدينية. ولباه الشعب باكثر اريحية وسخاء فجمع مبلغاً لا يُستهان به لتجديد مدرسة رومية. وكان يبعث بالتبرعات الى مجمع انتشار الايمان او الى قداسة البابا رأساً حرصاً على حسن سمعته لئلا يُقال او يُظن انه يجمع لنفسه او لينتفع بشكل من الاشكال. وهذا كان من الامور التي زادت اعجاب البابا به ، ومجمع انتشار الايمان واساقفة فرنسة وكادلتها تقديراً له وغيرة على اسعافه. وكان للاوون الثالث عشر نظر خاص عليه ، وارتبط بصداقة متينة مع كردينال دوران وكردينال باريس وسواهما من الرجال العظام. وما ان رأى الحبر الاعظم البابا لاوون ذلك

التجرد والاخلاص والمقدرة حتى امدّه بمساعدة فعالة غير مكتف بالاعجاب والتقدير. وبادرت الطائفة المارونية كلها برؤسائها ورهبانياتها وشعبها وامدته بمبلغ غير قليل من المال يوازي نصف ما جمعه في الغرب لتجديد المدرسة المارونية، فتوفق الى احياء المدرسة وايجاد الايراد اللازم لمعاش نحو خمسة وعشرين تلميذاً فيها يتعلمون مجاناً على نفقتها. وتمّ له ذلك ببراءة بابوية مؤرخة في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٨٩١، بُعثت بها المدرسة القديمة من لحدها بجميع حقوقها وامتيازاتها وامتيازات طلابها.

وفي الوقت ذاته سعى السعي الجدي لانشاء جمعية راهبات العائلة المقدسة المارونيات وتوفق. وله في هذا المسعى الاخير الكثير الخطورة تقارير عديدة ومباحثات مع رؤساء مجمع انتشار الايمان ومع البطريرك الاورشليمي وقتئذٍ على اللاتين، ومع سواهم من كبار الدين ليس هنا مجال ايرادها، بل يكفي الالماح اليها.

وفي تلك الاثناء اسند اليه البطريرك يوحنا الحاج مهامّ عديدة خطيرة الشأن فقام بها خير قيام: منها ما كان تجاه الحبر الاعظم، ومنها ما كان تجاه الحكومات الزمنية كرئاسة الجمهورية الافرنسية وامبراطور النمسة فرنسوا جوزف وسلطان بني عثمان في الاستانة، وقد فاز من هذا في مدة اقامته في الاستانة بمساعدة مالية ذات شأن لمدرسة رومية، وحظي من ولي عهد النمسة بقصره في مدينة تيفولي ليكون مصيفاً لتلامذة المدرسة، وقد بقي كذلك الى امد غير بعيد منا. وحضر من قبل الطائفة المارونية مجمع البطاركة الشرقيين في رومية، والمجمع القرباني الاول في القدس. وكان حيث نزل وأنّى وجد يغتنم الفرصة للاهتمام بشؤون طائفته وبلاده سواء كان من الوجهة الدينية او الاجتماعية والسياسية او الاقتصادية باقواله وتقاريره وافعاله بكل تجرد واخلاص وجرأة ووضوح وخبرة عملية عزّ نظيرها. فانفتح بتلك المهام امامه أفق جديد متسع وعرف اكابر اكابر العالم، ولاسيما ممن لهم علاقة مع الطائفة والبلاد فازدادت معارفه وعظمت منزلته وعرفه الذين لهم كل التأثير في ادارة دفة الكنيسة او دفة السياسة العالمية، وصاروا يعطفون عليه ويميلون اليه ويقدرونه قدره. ولاجل

هذا كان يتوفق في مهامه بسرعة غريبة ما كان يحلم بها من عالجوا تلك الشؤون عينها قبله . ومن الامور التي توفّق فيها اثناء عودته من رومية ومصر في مروره على القدس سنة ١٨٩٥ انه اشترى داراً فسيحة لنزول الزوّار الموارنة فيها صارت مركزاً لوكيل بطريركي في القدس الى يومنا هذا ، لانه انف ان تبقى الطائفة المارونية في فلسطين محرومة من مركز يؤمّه الزوار من ابناء الطائفة وان يكون الموارنة اجانب اغراباً في القدس وهم اقرب الناس جواراً الى المدينة المقدسة ، وكان لهم فيها مزارات في كنيسة القيامة وسواها من اقدس المزارات فضلاً عن الرعية الكبيرة والعقارات الواسعة .

وبأمر البطريرك يوحنا الحاج زار ابناء الطائفة المارونية المنبثين في جميع انحاء القطر المصري وذلك اثناء عودته من اوربة . فلبث بينهم يتفقد شؤونهم ويعنى بامورهم الروحية افضل عناية فاحبوه كثيراً وعرف ما يحتاجون اليه فثبت له انه لا بدّ من انشاء نيابة بطريركية في مصر لتعنى بامورهم عن قرب وبصورة دائمة .

ان ذلك الفوز السريع في مشاريع الاسقف الثوري الناهض وتلك المساعي المختلفة المشكورة والتقارير المسهبة المشربة بروح المحبة للشعب اللبناني والعطف عليه ، المسبوكة بقالب الحكمة والسداد والاخلاص والتجرد التام . وذلك التعرّف الى كبار الدين والدنيا قد وجّه اليه انظار قداسة البابا لاون الثالث عشر العظيم ، فاستدعاه شخصياً سنة ١٨٩٧ الى رومية وعهد اليه بادارة المدرسة المارونية التي احياها بجده ونشاطه وغيرته ، اذ تحقق لقداسته ان ما من احد يستطيع ان يتعهد ذلك المعهد في اول نشأته بالغيرة والحب والعناية كالمطران الياس الحويك الذي عرف ان يجدده بمساعيه المشكورة ومتاعبه الممدوحة وسهره الدائم . فكان في تلك المدرسة اباً ومرشداً ومديراً ومدبراً عائشاً بين التلاميذ كأنه تلميذ . ومما يروى عنه فيها انه كان اذا اهدى اليه احدهم تفاحة او طيراً او قطعة حلوى لا يرضى ان يأكلها وحده بل يقسمها مع تلاميذ المدرسة اثناء الطعام على المائدة فكان معهم كاصغرهم سناً لا يشعر احد بوطأة رئاسته . فاصطلح جميع ما كان مختلاً في المدرسة قبل استلامه اياها وبشرت بمستقبل

باهر، واتضح ان الحويك اينما حلّ يكون سيد المقام بعلمه وفضيلته وحكمته وحنكته وطول اناته.

ان المطران الياس الحويك قد ترك آثارًا كتابية في تقاريره الدينية الى المراجع الكنسية العالية والمراكز الدينية السامية لا تزال محفوظة تدلّ جميعها على خصب حياته الاسقفية بجلائل الاعمال العائدة بالخير الحقيقي والروحي والزمني على الطائفة والبلاد. ولو كنت ارّخ الوقائع والحوادث اليومية من حياة البطريرك الحويك العظيم لما كفاني مجلد ضخم لسرد ذلك، وانما انا اشير بهذه اللمحة اشارة الى مآتي ذلك السيد السامي، ناظرًا الى الاحداث التاريخية في حياته نظرة اجمالية، آخذًا منها ما يؤيد الفكرة العمومية المقصودة من هذه المقالة وهي تحليد كلمة في حقيقة عظمة البطريرك الحويك وفي سر تلك العظمة.

قال بعضهم يوم ارتقى الى السدة البطريركية المنبوط الذكر البطريرك يوحنا الحاج، وبعث بالمطران الياس الحويك الى رومية لتقديم الطاعة للحبر الاعظم واستجلاب درع الرئاسة وبراءة التثبيت، وللسعي في سبيل تلك المهام التي اشرت اليها، ان البطريرك يريد ان يبعد الحويك عن بكركي ليغيّر سياسة البطريركية التي كان يديرها الحويك باسم البطريرك مسعد، واعتقد الكثيرون ان البطريرك باعتماده على تلك الخطة تغير على الحويك او انه غير راض عنه. بيد ان الحقيقة هي غير ما يتوهم الناس وفي سوى ما يبنونه على الظواهر ويعلقونه على الاقاويل. ان البطريرك يوحنا الحاج الثاقب النظر البعيد الهمة العميق النور، كان اعرف الناس بشهرة الحويك فرأى ان سفره الى رومية يكون خير الطائفة والبلاد ولازدياد معارفه الشخصية واختباراته، فكان آلة في يد العناية الالهية التي ارادت ان تكمّل الحويك وتجعله صالحًا للبطريركية المارونية ليخلف البطريرك يوحنا الحاج ويكون صلة بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وتتحقق بواسطته جلائل الامور. فالخبرة التي اكتسبها في لبنان طيلة اقامته في البطريركية لم تكن كافية في الشؤون الخارجية الواجبة للمعاطاة مع اساطين السياسة في فرنسة والاستانة، وكبار رجال الدين في رومية وغيرها ولاسيما مع امام الاحبار.

ومن اسباب فشل بعض الرؤساء في الادارة الكنسية او المدنية ، وخاصة في شرقنا ، الطفرة في تقلد الوظائف دون المرور في جميع ادوار السلك الاداري للتمرن والتعرف على الناس .

ان الطفرة قد تجوز احياناً مع النوابغ ، ولكنها غير محمودة حتى في هذه الاحوال ، لان النابغة يكون نابغة في فنّ او في امر واحد اما سياسة الناس ان في الدين وان في الدنيا فلا بد لها من نبوغ في جميع الشؤون . وما ذلك الا لان الرئيس يكون مرجعاً لطبقات من الشعب مختلفة العقول والتهذيب والمقدرة والرقي والحاجات فيلزم لاداراتها من يكون قد تقلب في مناصب عديدة وتمرن على جميع الشؤون الاجتماعية ليستطيع ان يفهم حاجات المرؤوسين وعاداتهم واخلاقهم وميولهم ، شأنه في ذلك شأن ربان السفينة الذي لا يُقلد وظيفة الربان منفرداً الا بعد ان يكون تمرن تحت يد ربان ماهر سنوات واجتاز البحار مرارًا في هدوئها وفي هيجانها وعواصفها ليصير خبيرًا بطرقها مستحقًا ان يؤتمن على ارواح الناس وعلى اموالهم !

كان الحويك يشعر بالمقاومات والمضادات في الاقوال والافعال منذ كان كاهناً الى ان صار اسقفاً . غير انه ما كان يظهر غضباً ولا يُبطن حقدًا ، بل كان يتجاوز عن هفوات الناس ويستفيد منها ويرى بها اصبع العناية الالهية ويتوقع من ورائها نتيجة لا ينتظرها البشر ولا يحسبون لها حساباً . ولهذا ما رأيناه في حياته مشتغلًا بالانتقام من احد ولا بالدفاع ضد احد من مناوئيه ، بل كان دائماً متبسماً يقول : « الله يدبّر . دعوا العناية الالهية تشتغل وحدها فهي التي دبّرت ما جرى لخير ما كنا نعرفه ولكن سنلمسه بايدينا غدًا . » وهكذا كانت تحقق العناية الصمدانية آماله وايمانه بها .

فما اجل طرق العناية الالهية انها كلها حكمة وسلام . فهي تستخدم في اكثر الاحيان ضغائن الناس وقصر نظرهم لتتوصل الى غاياتها وتبعد رجالها في السكينة ليوم العاصفة ، وفي العاصفة ليوم الطمأنينة ! « فتحصد من حيث لم تزرع وتجمع من حيث لم تبذر ! »[1] (لها بقية)

١١ متى ٢٥ : ٢٤